الثورة الفرنسية

١٠ اكتوبر ١٩٣٢

●

اجد صعوبة في الكتابة عن الثورة الفرنسية ، لا لفقر في المادة ولكن لغزارتها. فقد حفلت رواية الثورة المدهشة بالحوادث الغريبة التي لا زالت حتى اليوم تملأ الناس اعجاباً ونشوة وخوفاً . كانت دسائس الامراء والساسة مبثوثة في المخادع والمقصورات ؛ وكان الجو مكسواً بسحابة قاتمة من الغموض . وكثيراً ما كمنت وراء الفضيلة الرذيلة ووراء الكلام المعسول المنمق الاطماع والتنافس . ومع ان هذا التنافس وهذه المنازعات تقود الى الحرب وازهاق ارواح الشباب ، فأننا لن نتحاشى ذكر هذه الدوافع المنحطة التي كانت تقدم للناس على أنها افكار نبيلة واهداف سامية تتطلب التضحية .

ولكن الثورة تختلف عما سبق ، لأن مهدها الحقل والشارع والاسواق ، وسبيلها وعر شاق ، ورجالها لم تتوفر لهم فرصة التعلم التي اصبحت للامراء والساسة ، ولا يتقنون الكلام المنمق الذي يخفي وراءه المكر والخديعة . وهم لا يحتاجون الى ما يسترون به أفكارهم ، كما ان اجسادهم نفسها يكاد لا يسترها شيء. وعندما تندلع الثورة يسقط في ايدي الملوك ومحترفي السياسة لأنهم يجابهون الحقيقة المرة التي يندفع خلفها مادة خام من البشر والامعاء الطاوية .

كانت الفترة الواقعة بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٥ فترة انطلاق الجماهير وسيطرتها على الجبناء من السياسيين ، مجبرة اياهم ان يقوموا بالغاء الملكية والاقطاع والامتيازات

الكنسية . وهذه الجماهير هي نفسها التي تتعرض لحد المقصلة ، وتقوم بالانتقام الفظيع من هؤلاء الذين كانوا يسقونها كأس العذاب، ومن هؤلاء الذين كانوا يتآمرون على الحرية التي اهتدت اليها . ان الجماهير التي نراها رثة الثياب حافية القدمين هي التي تندفع الى ارض المعركة ذوداً عن حياض الثورة وتهزم بأسلحتها البالية جيوش اوروبا المدربة والموحدة لقتالها .

وقد ابلى ابناء فرنسا بلاء حسناً . ولكن بعد سنين من الاجهاد والنزاع خارت عزيمتهم والتفتوا الى الخلافات فيما بينهم ، وبدأت الثورة تحارب نفسها وتلتهم ابناءها . ومن هنا قامت الثورة المعاكسة التي التهمت الثورة الحقيقية وأعادت العوام الذين اثبتوا جرأتهم واكتووا بنار الثورة الى حظيرة حكم الطبقات الممتازة، وتمخضت الثورة المعاكسة عن نابوليون الدكتاتور والامبراطور. ولكن نابوليون والثورة المعاكسة كانا اعجز من ان يعيدا الشعب الى الدرك الذي كان عليه قبل الثورة . ولم يكن باستطاعة احد ان يمحو الصفحة التي سطرتها الثورة بالفتوح المجيدة التي حققتها او ينتزع من شعب فرنسا وشعوب اوروبا الاخرى الذكرى الحبيبة ، ذكرى هبة المستعبَدين في الارض وتحطيمهم نير العبودية ، وان كان ذلك لم يدم زمناً طويلاً .

كان عدد الاحزاب والكتل الساعية الى السيطرة في بداية عهد الثورة كبيراً. كان هناك الملكيون الذين حاولوا - عبثاً - ابقاء لويس السادس عشر ملكاً مطلق السلطة؛ والاحرار المعتدلون الذين يرضيهم ان يبقى لويس ملكاً دستورياً محدود السلطة ؛ والمعتدلون الجمهوريون المعروفون بحزب جيروند ؛ والجمهوريون المتطرفون المعروفون باليعقوبيين ، لانهم كانوا يجتمعون في دير يعقوب . وكان الى جانب هذه الاحزاب الرئيسية عدد من المجازفين ؛ والى جانب كل هؤلاء جماهير الشعب الفرنسي ولا سيما الباريسيون الذين كانوا يسيرون وراء عدد كبير من الزعماء المجهولين . وكان هناك (مهاجرون) من النبلاء الفرنسيين الذين لجأوا الى انجلترا وراحوا يديرون دسائسهم ضد الثورة .

وانتظمت قوى اوروبا الرجعية في وجه الثورة الفرنسية . واستوى في الذعر

منها كل من انجلترا ذات البرلمان المشوه والارستقراطية العريقة وملوك وأباطرة بقية بلدان القارة الاوروبية الذين خافوا ان ينفجر بركان العوام في كل مكان . وحاولت هذه القوى الرجعية ان تخنق الثورة في مهدها .

واشترك الملك مع جماعة من الملكيين في حبك الدسائس والمكائد للشعب ، فما زادهم عملهم الا قرباً من الهـــاوية . وكان اقوى الاحزاب في مجلس الامة الحزب الحر المعتدل الذي طالب بوضع دستور شبيه نوعاً ما بدستور انجلترا أو امريكا . وكان على رأس هذا الحزب ميرابو . وظل الحزب مسيطراً على المجلس مدة عامين ونصف تقريباً أصدر خلالها عدداً من الاعلانات والتغييرات الهامة . وكان يوم ٤ اغسطس ١٧٨٩ ، اي بعد سقوط الباستيـــل بعشرين يوماً ، يوماً مسرحياً في تاريخ مجلس الأمة . نوقش في ذلك اليوم موضوع الغاء الامتيازات الاقطاعية . ولما كان افراد الشعب – بما فيهم النبلاء الاقطاعيون – واقعين تحت تأثير نشوة الحرية ، اخـــذوا يتنافسون في مدى ما يتنازل الواحد منهم من امتيازاته الخاصة وكانت نهضة مخلصة نبيلة حقاً ، ولو انها لم تثمر لعدد من السنين. ومن النادر حقاً ان تبدي الطبقات الممتازة مثل هذا الشعور النبيل ، وان كان شعور المرء بقرب زوال امتيازاته يجعل من الحكمة اتخاذه هذا الموقف .

وقد رأينا مثل هذا الشعور في الهند قبل ايام قليلة عندما قام غاندي بصومه محاولة منه انهاء حالة المنبوذين في البلاد . وفعل عمل غانـــدي في النفوس فعل السحر ، فتساقطت القيـــود التي كان الهندوس قد اوثقوها على جسد اخوانهم المنبوذين ، وفتحت الابواب امام المنبـــوذين بعد ان ظلت موصدة في وجوههم اجيالاً عديدة .

وهكذا قرر مجلس الامة في فورة الحماس – إلغاء كل من العبـــودية والامتيازات والاعفاء الذي كان يتمتع به النبلاء ورجال الدين من الضرائب وإلغاء الالقاب . وكان من الغريب حقاً ان يبقى الملك بينما خسر النبلاء ألقابهم.

عالج مجلس الأمة بعد ذلك موضوع اعلان حقوق الانسان . وربما كان رجال المجلس متأثرين باعلان الاستقلال الامريكي ، ولكن الاعلان كان قصيراً بينما

كان الاول مسهباً ، وفيه شيء من التعقيد . وكان المفروض ان يكون اعلان حقوق الانسان هذا ضماناً اكيداً للمساواة والحرية والسعـــادة ، وهي خطوة جبارة جريئة في ذلك العصر ، مما جعل الاعـــلان دستوراً يستند اليه الاحرار والديمقراطيون في اوروبا مدة مئة عام من الزمان ، مع انه اليوم يعتبر متأخراً عن روح العصر ولا يحل اياً من مشاكله . لقد استغرق الانســان زمناً طويلاً جداً قبل ان يكتشف ان مجرد المساواة امام القانون والحصول على حق الانتخاب لا يضمنان المساواة الحقيقية او الحرية او السعادة ، وان الرجال القائمين على تصريف شؤون الحكم ما زالوا يملكون الوسائل الأخرى لاستغلال الانسان .

لقد حدث تطور كبير في التفكير السياسي منذ اندلاع الثورة الفرنسية . وربما اعترف المغالون من المحافظين من معاصرينا بالمكانة الرفيعة التي حققتها مبادىء اعلان حقوق الانسان ؛ ولكن هذا لا يعني ، كما لا يخفى ، ان هؤلاء الناس مستعدون حقاً ان يعطوا الشعب المساواة الحقيقية والحرية . وقد حمى الاعلان المذكور حق الملكية الفردية . اما مصـادرة املاك الكنيسة ورجال الدين فراجعة لأسباب اخرى متعلقة بالامتيازات الاقطاعية والامتيازات الخاصة . اما حق التملك فانه ظل حقاً مقدساً له حرمته . وربما علمت ان الافكار السياسية التقدمية اليوم تعتبر الملكية الفردية بيت الداء الواجب استئصاله بقدر المستطاع .

ولئن بدا اعلان حقوق الانسان لنا اليوم كلاماً مبتذلاً ، فـإن كثيراً من جلائل الاعمال بالأمس تبدو صغيرة الشأن اليوم . ولا نغفل ان ذلك الاعلان بعث في الناس نشوة الأمل وآسى المحرومين والمعذبين في اوروبا . ولكن الملك ابغض الاعلان واعتبره اهانة له ورفض التوقيع عليه . وكان الملـك آنذاك في فرساي ، فسار الشعب الباريسي — وعلى رأسه النساء — الى قصر فرساي واجبر الملك على تصديق الاعلان . وحمل الشعب الملك معه الى باريس في الموكب الغريب الذي ألمحت اليه في رسالتي الأخيرة .

لقد أدخل المجلس اصلاحات مفيدة عديدة في البلاد . صودرت املاك الكنيسة الشاسعة ؛ وقسمت فرنسا تقسيماً ادارياً جديداً يجعلها ٨٠ ادارة ظلت ، كما اعتقد ،

قائمة حتى اليوم ؛ وادخلت المحاكم الحديثة لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة. كانت هذه الاصلاحات ذات شان ولا شك ، ولكنها لم تصل الى نهاية الشوط ، فقد ظل الفلاحون النهمون الى الارض بدون ارض ، وظل العوام بدون خبز ، وكأن يد الثورة قد غلت . ولنذكر هنا ان العوام والفلاحين لم يكونوا ممثلين في المجلس ؛ وكانت السلطة في المجلس في يد الطبقة الوسطى التي يتزعمها ميرابو . وعندما شعر هؤلاء ان الثورة قد حققت اهدافهم هم ، حاولوا ان يوقفوها عند هذا الحد ، حتى انهم تحالفوا مع الملك في قتل الفلاحين في المقاطعات الفرنسية . واصبح ميرابو بالفعل مستشاراً سرياً لدى الملك . وقد تبلبلت من جراء ذلك افكار العوام الذين دكوا معاقل الباستيل واحتلوه ظناً منهم ان ذلك قد هيأ لهم تحطيم قيودهم الى الأبد وأنهم نالوا حريتهم . ولكن سرعان ما رأوا ان حريتهم ظلت بعيدة عنهم وان مجلس الامة يسعى لدحض مساعيهم كما كان يفعل قبل ذلك النبلاء الاقطاعيون .

وفتش اهل باريس – وهي قلب الثورة – عن منفس جديد لنشاطهم الثوري خارج مجلس الامة وداخل بلدية باريس . وكان لهذه البلدية ولكل ضاحية من المدينة « التي كان لها ممثلون في البلدية » اتصال مباشر بالجماهير . ولذا فقد حملت البلدية وضواحي المدينة راية الثورة والمنافسة المجلس الواقع تحت سيطرة الطبقة الوسطى والمعتدلين .

ولما حانت الذكرى السنوية الاولى لسقوط الباستيل ، اقام اهل باريس حفلاً تذكارياً دعوه « عيد الاتحاد » . وقام العوام في باريس بعمل الزينات مجاناً لهذا العيد الذي اعتبروه عيدهم الحقيقي .

هكذا كانت حالة الثورة عامي ١٧٩٠ و ١٧٩١ . لقد فقد المجلس حماسه الثوري وملّت نفسه التغييرات المتعاقبة . اما شعب باريس فإن مرجل الثورة ظل يغلي في نفسه ، وظل النهم الى الارض ينهش فؤاد الفلاحين . ولا بد في حالة كهذه ان تختار الثورة بين المضي قدماً او إلقاء عصاها والاستسلام .

وتوفي ميرابو عام ١٧٩١ . وكان طيلة حياته محبوباً لدى الجمهور ، بالرغم من

تعاونه السري مع الملك . وفي ٢١ يونيو ١٧٩١ وقع حادث قرر مصير الثورة . فقد حاول الملك لويس والملكة ماري انطوانيت الهرب ؛ وكادا يفلحان في المحاولة ويصلان الحدود لولا ان كشف احد الفلاحين امرهما قرب (فارين) القريبة من فردون ، فأوقفا واعيدا الى باريس .

كان عمل الملك والملكة هذا الحد الفصل بالنسبة لشعب باريس فيما يتعلق بمصير الملكية . وانتشرت الدعوة للجمهورية ، مع ان المجلس كان من الاعتدال وعدم الاحساس برغبة الجمهور بحيث استرسل – مع الحكومة في اطـــلاق النار على الشعب المطالب بخلع الملك . واتهم مارا – وهو من ابرز رجال الثورة الفرنسية بتهمة التعرض للذات الملكية فاضطر للاختباء في مجاري باريس حيث اصيب بداء جلدي خبيث . والغريب ان لويس ظل – ولو اسميـاً – ملكاً على فرنسا لمدة عام آخر . وفي سبتمبر ١٧٩١ انهى مجلس الامة اعماله تاركاً المجال امام تأسيس « المجلس التشريعي » . وكان هذا المجلس كسلفه في الاعتدال وممثـــلاً للطبقات العليا فلم يتمثل فيه الشعب الفرنسي الممتلىء حمية على الثورة والذي يمثله اليعقوبيون الذين اخذت شوكتهم تقوى .

وكانت القوى الاوروبية تراقب الاحداث الجـارية في فرنسا بذعر بالغ . ومع ان بروسيا والنمسا كانتا مشغولتين في اقتســام الغنائم فيما بينهما من فريسة بولندا التي حاولتا القضاء عليها ، إلا ان حوادث فرنسا ألهتهما عن ذلك . واشتبكت فرنسا في عام ١٧٩٢ في حرب مع النمسا وبروسيا . واذكري ان النمسا كانت في ذلك الحين تسيطر على بلجيكا التي كانت جزءاً من الأراضي المنخفضة المشتركة في الحدود مع فرنسا . وزحفت الجيوش الاجنبيـــة داخل الاراضي الفرنسية وهزمت الفرق الفرنسية ، فظن الشعب ان الملك كان على اتفـــاق مع هؤلاء الغزاة واخذ يرتاب من خيانة الملك . وكلما أحدق الخطر بالشعب الفرنسي كلما ازداد حماساً واضطراباً ورأى الخيانة ماثلة في كل مكان ، وبرزت بلدية باريس الثورية تقود زمام الازمة ، فرفعت العلم الاحمر إشعاراً منها باعلان حالة الطوارىء ومقاومة تمرد الملك . وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ أمرت البلدية بالهجوم على القصر

الملكي . فأمر الملك حراسه السويسريين باطلاق النار على الشعب . وكانت الغلبة حليفة العوام ، واجبرت البلدية على خلع الملك وايداعه السجن.

ان العلم الاحمر اليوم ، كما هو معروف ، علم العمال الاشتراكيين والشيوعيين في كل مكان . ولكنه كان في الاصل العلم الرسمي الذي تعلن بـــه الحكومة الاحكام العرفية ضد الشعب. واظن ان استعمال البلدية الباريسية لهـذا العلم كان المرة الأولى التي استعمل فيها لمصلحة الشعب. وتطور بعد ذلك الى ان اصبح علم العمال .

ولكن خلع الملك وسجنه لم يشفيا غليل شعب باريس الذي لم يغفر له حادثة اطلاق الحرس السويسري النـــار على الجماهير وقتله العدد الكبير منهم . وغلت الصدور حقداً على الخونة والجواسيس خوفاً من دسائسهم ، فانطلقوا يسجنون كل من يرتابون فيهم ويكدسونهم في السجون . وانه وان كان الكثير من هؤلاء المساجين مذنبين في حق الشعب فلا يخلو ان يكون بينهم البريء.

وطفت بعد ايام موجة عاتية من العاطفة على الشعب ، فأخرج المساجين واقام لهم محكمة صورية وقتل معظمهم . ويربو عدد القتلى في هذه المجزرة المعروفـــة (بمجزرة سبتمبر) على الف شخص . وذاق الشعب بذلك طعم الدم المسفوك على مذبح الحرية ، واصبح لايرتوي الا بالمزيد من هذه الدماء .

وفي سبتمبر ايضاً ذاقت الكتائب الفرنسية طعم النصر على جيـــوش النمسا وبروسيا التي غزت فرنسا في معركة فالمي الصغيرة من الوجهة العسكرية والجليلة الأهمية لأنها انقذت الثورة الفرنسية من الهزيمة.

وفي ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ اجتمعت (الجمعية الوطنية) التي حلت محل مجلس الأمة. وقد كانت الجمعيـــة اكثر تطوراً من المجلسين اللذين سبقاها ، ولكنها كانت متخلفة عن البلدية في التطور . وكان اول اعمال الجمعية اعلان الجمهورية. وتلا ذلك محاكمة لويس السادس عشر والحكم عليه بالموت . وفي ٢١ يناير ١٧٩٣ قدم لويس رأسه للمقصلة ثمناً لأخطاء الملكية ، واطاحت المقصلة برأسه.

وبذلك احرق الشعب الفرنسي قواربه خلفه، ولم يبق له من مفر بعد ان لوح براية الثورة في وجه ملوك اوروبا واباطرتها . وقبل ان يجف دم لويس على حد المقصلة ، وقف دانتون، احد قادة الثورة البارزين ، خطيباً في الجماهير ونـــدد بملوك اوروبا قائلاً : «سنرمي لأولئك الذين يتوعدوننا برأس ملك» .